

سيرة ذاتية أم وثيقة
سياسية؟

السيرة الذاتية فى بدايتها كانت كتابة اعترافية دينية يسبر فيها الفرد أغوار ذاته للتعرف على مواطن ضعفه الإنسانى وليقيم علاقة سليمة مع الخالق. ورغم أن تلك الكتابات انفصلت لاحقاً عن أصولها الدينية وأصبحت شكلاً من الأشكال الأدبية طرقة الأدياء والمفكرون والسياسة فقد احتفظت تلك الكتابات بسمتين أصيلتين وهما محورية الذات وصيغتها الاعترافية. وفى زمننا هذا نحت السيرة مناحى مختلفة وتعددت أساليبها وأهدافها. فإلى جانب السير التى مازالت تلتزم بالسمات الأساسية ظهرت أخرى تهدف إلى الإثارة والكسب السريع. أيضاً نجد أن هناك من بين القادة والمرموقين من الأفراد من يحاول استباق التاريخ بكتابة سيرته الذاتية حتى لا يترك لأقلام الآخرين حرية تسجيل الكلمة الفاصلة عنه، وقد ظهر فى السنوات الأخيرة عدد غير مسبوق من سير القادة والملوك والمشاهير من الأفراد.

وتستدعى طبيعة وأهداف ذلك الشكل من الكتابة التساؤل عن مقصد ماندبلا من نشر سيرته ولم تمض شهور على توليه السلطة. فسيرته كما نقرأها ليست اعترافية والذات ليست محوراً فهى تركز على الحدث. كما أن ماندبلا أصبح رمزاً تمتلكه البشرية جمعاء لذلك

يُستبعد أن تكون سيرته محاولة منه لاستباق المؤرخين خوفاً من التشويه أو سوء الفهم.

فى سياق سرده للأحداث يذكر مانديلا أنه أثناء تواجده فى المعتقل اقترح زملاؤه عليه كتابة مذكراته احتفاءً ببلوغه الستين على أن يتم تهريبها خارج السجن والبلاد لنشرها كى تعمل على إزكاء شعلة المقاومة التى كانت قد خفتت آنذاك. ونجح مانديلا وزملاؤه فيما اعتزموه. غير أن تلك المذكرات لم يكتب لها أن ترى النور. يقول مانديلا إن تلك المذكرات هى العمود الفقري لكتابه الحالى، وعلى ذلك فلنا أن نفترض أنه رغم أن كلتا السيرتين قد تحوى نفس الأحداث الرئيسية إلا أنه ربما قد جرى تعديل بالحذف أو بتغيير بؤرة التركيز لأن المذكرات الحالية أريد بها تحقيق هدف مختلف عن ذلك الذى هدفت إليه المذكرات الأولى.

وبقراءتنا للسيرة الحالية يتبين لنا أن هدف مانديلا الأول هو تبيان وترسيخ وتبرير سياسته التوفيقية التى التزم بها واتبعها. وتلك السياسة ليست وليدة الساعة، وليست مسابرة للظروف والمتغيرات لكنها تنبع من عقيدة التزم بها المؤتمر منذ نشأته واعتنقها مانديلا

فكراً عقلانياً وأساساً واقعياً لكفاحه منذ بدايه تسييسه، كما عمقتها التجربة وقوى التزامه بها نضج الفكر وشمولية تجربته الإنسانية.

لم يشب مانديلا على كراهية للبيض. بل على العكس، فإن تجربة طفولته وصباه كما يصورها هي تجربة رعوية لم يفسد صفوها أى شعور بالقهر ولم يكتسب من نشأته الأولى عوامل أثرت فى اختياره طريق الكفاح سوى حس راسخ بالعدالة وإيمان بالديموقراطية وكبرياء لكونه إفريقيًا أسود. أما خلال سنوات دراسته بالمدارس والكلية الإرسالية فقد زاد إعجابه بالرجل الأبيض وكان منتهى طموحه أن يصبح «جنتلمان» إنجليزيًا أسود.

ولعل من الأهمية بمكان ملاحظة تزامن تفتح وعيه والتزامه السياسى مع دراسته للقانون فى جامعة Wits وقد تزامنت تلك الفترة أيضا مع إجراءات قمعية متزايدة من قبل السلطة لترسيخ نظام الأبارتايد. وربما يسترعى الانتباه أيضا أن زملاء مانديلا من غير السود قد لعبوا دورا كبيرا فى تسييسه. أى أن اختيار مانديلا لطريق الكفاح لم يقرره شعور شخصى بالظلم ورغبة شخصية فى مقاومة من يمارسونه لكنه نتج فى المقام الأول عن عقيدة أيديولوجية فى عدم عدالة الأبارتايد

ورغبة منه في إقرار العدالة. فهو يذكر في كل مناسبة أن عداءه لم يكن لأشخاص معينين أو لإثنية بذاتها. لكنه اختار أن يكافح نظاما باطلا ليقر نظاماً عادلاً. بل إنه كان يرى أن البيض أنفسهم وهم يمارسون الأبارتايد هم ضحايا للكراهية والتحيز وضيق الأفق.

لا عجب إذن أن مانديلا في سرده للأحداث لا يتوقف لوصف تفاصيل الممارسات الدموية الشريرة للبيض والتي نقرأ عنها حتى في كتابات بعض البيض أنفسهم، ولا يتخير وقائع بعينها كأمثلة لمعاناة الأفارقة. فإن أكثر الأمثلة التي يذكرها دموية هي مذبحه شاربفيل التي اقترفها نفر قليل من رجال الشرطة تملكهم الخوف، كما يقول، من كثرة عدد المتحدّين من السود فأطلقوا الرصاص وكان عدد الضحايا أقل من مائة قتيل، وفي المقابل فإن مانديلا يسرد بإسهاب وحشية الممارسات الدموية لأعضاء الإنكاثا من الزولو بطريقة تقشعر لها الأبدان.

ومن ناحية أخرى يعطى مانديلا أمثلة عديدة لعظمة بعض رجال القانون البيض وعدالتهم ومن بينهم بعض القضاة الذين حاكموه. كما يسجل كفاح ومواقف عدد من البيض الذين عملوا معهم وتعرضوا للسجن والنفي والموت.

يتضح إذن أن ماندبلا لا يريد التركيز على أو إحياء ممارسات بشعة لنظام وصفه هو بأنه من أعتى الأنظمة التي عرفها التاريخ بل يريد التأكيد على لا إثنية عناصر الشر وعناصر الخير وأن يؤكد تلك المبادئ التي قام عليها المؤتمر والتي كافح هو وغيره من أجلها لإقامة نظام عادل ديموقراطى تعيش الأعراق المختلفة فى ظلّه حياة عدالة وكرامة وأمان.

وعلى ذلك ففسيرة ماندبلا ليست ذاتية لكنها تأطير وتأصيل تاريخى وعقائدى وواقعى لسياسته التوفيقية التي التزم بها منذ توليه السلطة.

وقصة كفاح ماندبلا وشعب جنوب إفريقيا كما ترويها السيرة هي «أوديسا» الواقع المعاصر قادها شعب عاش مغلوبا على أمره لمئات السنين وسلب حقوق مولده وكيانه الإنسانى ضد نظام من أشرس الأنظمة وأشدّها قوة وثراء وصلاحا. وتمكنوا وهم الضعفاء الفقراء المحترقون ليس فقط من زعزعة النظام والإتيان عليه بل أيضا من كسب مؤازرة شعوب الأرض وحكوماتها ودفعها لتبنى قضيتهم سواء كان ذلك عن عقيدة أم مسابرة للتيار العام.

لم ينظر مانديلا للمعركة على أنها معركة بين مجموعتين من البشر فقط لكنه نظر إليها على أنها معركة بين أيديولوجيتين يميزهما التباين والتشابه في نفس الوقت. فقد قام الأبارتايد على أساس عقيدة سمو الجنس الأبيض ودعمت تلك العقيدة أسطورة دينية تصنف البشر تصنيفا هرميا يتربع الجنس الأبيض فيه على القمة ويرتب بقية البشر فيه بين القمة والقاع الذي يحتله السود. وعلى هذا فرغم تقديس الأفريكان للعدالة والديموقراطية فإن القوانين التي تجسد هذين المفهومين هي قوانين مصدرها البيض ولحماية البيض. وعلى الجانب الآخر تتلخص أيديولوجية المؤتمر ومانديلا في التأكيد على المساواة بين البشر وأن العدالة والديموقراطية هما من أجل حماية حقوق الفرد والمجتمع بغض النظر عن اللون والعرق. ومن خلال كفاحه أثبت شعب جنوب إفريقيا حذقا غير عادي ومهارة في التنظيم والتنظير والممارسة مما أجبر عدوهم والعالم أجمع ليس فقط على الاعتراف بهم كمنظراء بل على الإعجاب بهم والتسليم لهم.

ولعل تجربة المعتقل التي فاق عدد سنواتها عدد سنوات الكفاح خارج المعتقل هي التي تشعر القارئ ليس فقط بضآلته أمام عمالقة الإرادة

والفكر السليم، لكنها تجدد في النفس الثقة بالإنسان والعقيدة. فخلال سنواتهم الطويلة في معتقل جزيرة روبن النائية القاسية الموحشة حيث اختير لها عتاة السجنائين والضباط، نقل مانديلا وزملاؤه المعركة هناك حيث لم ينجحوا فقط في الحفاظ على أدميتهم وتأكيد حقوقهم، بل إنهم حولوا المعتقل إلى جامعة لتربية النفوس والعقول والأجساد، ولتثقيف وتعليم المسجونين السياسيين، وتسييس وتعليم عتاة الإجرام من السجناء العاديين. فإنهم بالإضافة إلى استغلال وقتهم لمواصلة دراستهم أقاموا المساجلات السياسية والثقافية والاجتماعية والتراثية ووضعوا منهاجاً متكاملًا للدراسة. كما قاموا بتكوين لجان للاستشارات القانونية، وتكوين منظمة داخلية للمؤتمر وقيادة عليها له، وعقد المباحثات مع أعضاء المنظمات الأخرى لرأب الخلافات. وفي نفس الوقت عملوا جهدهم كيلا يفقدوا الصلة بالتنظيمات والأحداث خارج المعتقل ولكي يبقوا المعركة حية بعد أن أُعتقل ونُفي جميع الزعماء. وانتهى الأمر بأن ترك القائمون عليها شئون الجزيرة وحفظ النظام بها للسجناء أنفسهم. أما بالنسبة للعالم الخارجى فقد ارتقت الجزيرة وقاطنوها إلى منزلة الرمز والأسطورة مما أجبر العدو في

النهاية على أن يسعى إليهم وأن يدرك أن لا بديل للتفاوض معهم وللخضوع لإرادة الحق.

أتى الأفرقة وعلى رأسهم مانديلا مائدة المفاوضات مسلحين بالعلم والمعلومات والخبرة والعقيدة. أتوها وهم يعلمون عن عدوهم أكثر مما يعلم هو عن نفسه وعنهم. ويقول مانديلا في ذلك الصند «لم نأت الاجتماعات متسولين لكن مواطنين لنا الحق في مكان متساو على المائدة». أصر مانديلا ورفاقه على عدم قبول اشتراطات مسبقة ورفض المساومة، كما رفض أن تتوقف النشاطات العسكرية كشرط لبدء المفاوضات ولم يملك الطرف الآخر أمام الوعي والإصرار سوى الخضوع والتسليم.

ومع انبهار القارئ إذ تتفتح أمامه تلك السيرة البطولية فإنه يتوقف عند بعض النقاط المحيرة ولعل أهمها بالنسبة لى كقارئة عربية بعض ما يأتى فى سياق رواية مانديلا. فإنه يذكر أنه إبان اختفائه فى مزرعة ريفوتيا كان معلمه الأول فى فنون حرب العصابات هو آرثر جولدريتش الذى كان ضمن الجناح العسكرى لحركة بالماخ الصهيونية فى فلسطين والذى خاض حرب العصابات هناك. كما يذكر أيضا

ضمن الكتب التي قرأها وأفادته كَتَّاب الثورة لمناحم بيجين الذي يمتدحه. لم يتوقف مانديلا ذو الحس المرهف بالعدالة لحظة ليفكر أن هذين الشخصين اللذين حازا إعجابه قد خاضا حربا ضد سكان فلسطين الأصليين أعتى من تلك التي خاضها الأفريكانيون ضدهم وأن أيديولوجية الصهيونية تتماثل تماما مع أيديولوجية الأفريكانيين البيض التي عانى من جرائمها شعبه ما عاناها.

ومن النقاط المحيرة أيضا موقف مانديلا من الحركات المناوئة للمؤتمر وبالذات من منظمة الـ P.A.C - التي قادها سوبوكوي معلمه ورفيق كفاحه - والتي كانت تتمتع بشعبية بين القادة الأفارقة في وقت لم يكونوا يعلمون فيه الكثير عن المؤتمر. فإن مانديلا يصور تلك المنظمة للقارئ، كما فعل مع القادة الأفارقة ومن بينهم جوليس نيريري، على أنها منظمة صبيانية يعوز أعضاها الحنكة ومراعاة الصالح العام، وأن همَّ أعضائها الأكبر كان محاربة المؤتمر وليس محاربة العدو، كما يغفل دورها في المعركة ومساهمتها في تحقيق الانتصار. ولا يملك القارئ إلا أن يتساءل.. أنه لو صحت مثل تلك الادعاءات فلماذا إذن اعتقل زعيمها وأبقى في المعتقل رغم انتهاء مدة الحكم عليه إلى أن

توفى؟ ولماذا لم يتبناها النظام كما تبني حركة إنكاثا لو أن هدفها الأول كان فعلا محاربة المؤتمر وكانت بواقع أعضائها هي الغيرة والانتقام.

ورغم ذلك لم أملك سؤنا أقرأ تلك الملحمة- التغلب على مشاعر الخزي والضالة والانهزام، من تخلف أساليبنا وخواء شعاراتنا، من جهلنا بأنفسنا وبأهدافنا وبعالمنا، من تفرقنا وتطاحننا ونحن أبناء العرق الواحد واللغة الواحدة والتاريخ المشترك، من ضياع الطريق من تحت أقدامنا والهزيمة التي هي واقعنا.

تحية لك مانديلا.. تحية لك جنوب إفريقيا... تحية لكل من ساهم في تلك المعركة الملحمية من أجل الإنسان.

فاطمة نصر

مايو ١٩٩٥